

مسكويه والتربية الأخلاقية

برادي عبد الرحمن¹

علم الأخلاق عند مسكويه أفضل العلوم لأنه يعنى بأفعال الإنسان، وكتابه الرائع تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لأكبر دليل على اهتمامه بهذا العلم. وما يدعم هذا الكلام ما أكدّه الأستاذ أحمد محمود صبحي في قوله: "أن مسكويه هو أول من وجه الأنظار إلى الدراسات الأخلاقية بين فلاسفة الإسلام، كما حاول التوفيق بين النظر والعمل فضلا عن اهتمامه بتربية الأحداث كي يشبوا على الفضيلة"². والشيء الذي جعل مسكويه يهتم بعلم الأخلاق هو "إشارته إلى ضرورة تقويم الخلق على أساس فلسفي سليم حتى تصدر الأفعال عن النفس جميلة من غير كلفة ولا مشقة"³.

والإنسان في نظر مسكويه هو اشرف المخلوقات لذلك نجده يقسم العلوم إلى قسمين: علوم نظرية وعلوم عملية، وهذا التقسيم تبعا لوجود قوتين في الإنسان عالمة وعاملة "القوة العالمة تتجه إلى العلوم وتشتاق إليها، ويبلغ المرء كماله فيها عندما يصدق نظره وتصح بصيرته وتستقيم رويته، أما القوة العاملة فتعنى بنظم الأمور وترتيبها، فتبدأ بترتيب قوى الإنسان وأفعاله حتى لا تتغالب، وتصدر كلها بحسب القوة المميزة منتظمة مرتبة كما ينبغي"⁴

نعم وكما رأينا أن مسكويه استفاد كثيرا بالفلسفة اليونانية مع الحرص على عدم الاختلاف مع الشريعة الإسلامية، لذلك نجده يحاول توضيح الطريق إلى السلوك

¹ باحث في الفلسفة تمارست الجزائر

² أحمد محمود صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1992. ص312.

³ المرجع السابق، ص310.

⁴ علي بوملحم: علم الاخلاق عند مسكويه، دراسات عربية العدد2، بيروت، تشرين الأول اكتوبر1990، ص102.

المستقيم بما يجعل الالتزام بهذا السلوك سهلاً وميسوراً ، بذلك تكون "أفعال الإنسان وقواه وملكاته تختص بها من حيث هو إنسان وبها تتم إنسانيته وفضائله ، وهي أمور إرادية بها تتعلق قوة التفكير والتمييز، والنظر فيها يسمى الفلسفة العملية"⁵.

من خلال هذا النص نفهم ان علم الاخلاق عند مسكويه هو الفلسفة العملية التي تنظر في أعمال الإنسان الإرادية منها ما هو خير ومنها ما هو شر، وبهذا يكون علم الاخلاق يتناول محورين الخير والشر.

والأخلاق عند مسكويه تجمع بين العقل والإرادة (العلم-العمل) ، وتسعى الى العلم التام بكافة الموجودات وبخالق الكون حتى يتسنى للعقل معرفة مراتب الأشياء. ومذهب مسكويه الأخلاقي هو مذهب اجتماعي ان صح التعبير ، فهو يدعوا لان يعيش المرء في اجتماع لا منفردا وحده ، والسبب في ذلك "ان قوى الإنسان وملكاته النفسية متعددة، والخيرات التي تكون منها ان استعملت كما ينبغي كثيرة ، ولا طاقة لواحد ان يحصلها جميعها وحده فلا بد من تعاون كثيرين على تحصيل هذه الخيرات ، سواء ما اتصل منها بالقوة المفكرة أو بالقوة الغضبية أو بالقوة الشهوية لينعم الجميع بها معا وتتم لهم السعادة"⁶.

ولمعرفة مفهوم الاخلاق عند مسكويه لابد ان نتطرق أولا للنفس، وهذا واضح في قوله: "الخلق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية"⁷ ، إذن فالطريق لتحصيل هذا الخلق الفاضل الذي تنشأ عنه الأفعال الجميلة هو "ان نعرف أولا نفوسنا ماهي، وأي شيء، وما قواها وملكاته التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها الرتبة العليا"⁸.

⁵ المرجع السابق ، ص 104.

⁶ محمد يوسف موسى: فلسفة الاخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية..... ص ص 101 102.

⁷ ابو علي محمد مسكويه: الاخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: د-نواف الجراح ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 2006 ، ص 30.

⁸ المصدر السابق ، ص 9.

فالملاحظ هنا تأثر مسكويه وغيره بفلاسفة اليونان ، وهذا ما رآه الأستاذ ناجي التكريتي في قوله: "ان معظم فلاسفة الإسلام أقاموا دراساتهم في الاخلاق على نظرياتهم في النفس..."⁹.

التربية ونظرية النفس:

بينت دراسة مسكويه أن هناك عنصرا غير مادي في الطبيعة البشرية هو النفس، ويعرفها قائلا: "هذا الشيء -اي النفس- ليس بجسم ولا جزءا من جسم لا عرضا، وذلك انه لا يستحيل ولا يتغير ويدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا نقص"¹⁰.

والحجة على ان النفس ليست جسما هو: "ان الجسم إذا قبل صورة وشكلا من الأشكال كالتثليث مثلا، لا يقبل شكلا آخر من الترييع والتدوير وغيرهما إلا بعد ان يفارقه الشكل الأول، وإذا قبل صورة نقش أو كتابة أو اي شيء، لا يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى... فإذا بقي فيه من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام ، بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمام"¹¹.

والحجة على ان النفس ليست عرضا هو: "ان العرض لا يحمل عرضا، لان العرض في نفسه محمول أبدا موجود في غيره ، لا قوام له بذاته، وهذا الجوهر الذي وصفنا حاله هو قابل أبدا ، حَامِلٌ أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض"¹² ؛ إذن فالنفس ليست جسما ولا جزءا من جسم.

وهناك حجة أخرى يتبين من خلالها أن طباع النفس تختلف عن طباع البدن في قول مسكويه: "الجسم قواه لا تعرف العلوم إلا من الحواس كالشهوات البدنية،

⁹ ناجي التكريتي: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 2 ، 1982 ، ص 344.

¹⁰ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق ، المصدر السابق ، ص 11.

¹¹ المصدر السابق ، ص 11.

¹² المصدر السابق ، ص 12.

ويزداد بهذه الأشياء قوة ويستفيد منه تماماً وكالاً لأنها مادته وأسباب وجوده، فهو يفرح بها ويشاق إليها لأنها تتم وجوده، أما النفس فكلمها ابتعدت عن هذه المعاني البدنية ازدادت قوة وتماً وكالاً¹³؛ وهذه الفوارق بين النفس والبدن تدلنا دلالة واضحة على ان النفس جوهر أعلى وأكرم من الأمور الجسمانية.

ويؤكد هذا الكلام الأستاذ علي بوملحم في قوله: "إذا كانت النفس تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس، إلا انها تملك من ذاتها مبادئ أخرى لا تأخذها عن الحواس وهي المبادئ الشريفة العالية التي تُبنى عليها القياسات الصحيحة كمبدأ عدم التناقض، والحواس تدرك المحسوسات فقط، أما النفس فتدرك المعقولات وتدرك أسباب الاختلافات بين المحسوسات وتحكم على الحس انه صدق أو كذب..."¹⁴. ان حرص النفس على الابتعاد عن كل ما هو مادي وإثارها لكل ما هو الهيرواني دليل واضح على أنها ليست من جنس الجسم.

انها جوهر أعلى وأكرم من الجسم كما قلنا آنفاً "لأنها لا تدرك الأمور البسيطة من المركبات، وتدرك من المركبات أنواعها وأشخاصها بالرغم من ان الموجودات منقسمة الى هذه الأشياء وليس يفوت النفس منها شيء"¹⁵.

وهذه النفس بطبيعتها واحدة في نظر مسكويه إلا انها متعددة القوى والميول والاتجاهات، وتنقسم هذه القوى الى ثلاثة أقسام¹⁶:

القوة التي عن طريقها يتم التفكير والتمييز والنظر في حقائق الأشياء، وتسمى بالملكية، وآلتها التي تستعملها من البدن هي الدماغ.

القوة التي بها تغضب النفس وتقدم على الأهوال، وبها تميل الى التسلط والترفع، وتسمى بالقوة السبعية وآلتها من البدن هي القلب.

¹³ المصدر السابق، ص 13.

¹⁴ علي بوملحم: المرجع السابق، ص 105.

¹⁵ ابو علي محمد مسكويه: الفوز الأصغر، المصدر السابق، ص 36.

¹⁶ انظر- ابو بكر ابراهيم التلوع، المرجع السابق، ص 133.

القوة الشهوانية التي يطلب بواسطتها الغذاء وبقية اللذات الحسية وتسمى بالبهيمية ، وآلتها التي تستعملها من البدن هي الكبد.

ويتضح من خلال هذا التقسيم التأثير الشديد بأفلاطون خاصة، وبغيره من الفلاسفة عامة؛ ويعلم من هذا التقسيم "ان بعضها إذا قوي اضر بالآخر، ربما أبطل إحداها فعل الأخرى وربما جعلت نفوسا وربما جعلت قوى لنفس واحدة...وأنت تكتفي في تعلم الاخلاق بأنها قوى ثلاث متباينة تقوى إحداها وتضعف بحسب المزاج والعادة والتأديب"¹⁷.

ويقابل هذا التقسيم في قوى النفس تقسيم آخر للفضائل "فبعدد قوى النفس تنتظم كل فضيلة منها فضائل جزئية تعود إليها ، ثم باعتدال هذه الفضائل وانسجامها فيما بينها تكون فضيلة أخرى هي كمال الفضائل الثلاث"¹⁸ ؛ الم يقل مسكويه: "فلذلك أجمع الحكماء على أن أجناس الفضائل أربعة وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة"¹⁹.

غير ان النفس في نظر مسكويه "جوهر حي باق لا يقبل الموت ولا الفناء ، وأنها ليست الحياة بعينها ، بل تعطي الحياة كل ما توجد فيه...وأنها لو كانت الحياة لكانت حياة بحية...وان للنفس أفعالا خاصة بها مفارقا للبدن...ويقصد بالمفارق ذلك الجزء العاقل من النفس...لأن النفس الشهوانية تموت بموت البدن..."²⁰.

وخلاصة القول ان النفس لا تقوى بقوة الجسم ولا تضعف بضعفه، واستدل مسكويه على بقاء النفس نراه يغترف من الإغريق ، وبعبارة أدق من أفلاطون. الدليل الأول: النفس تعطي الحياة كل ما توجد فيه ما جعل حياتها جوهرية ولا تقبل الموت.

¹⁷ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق ، المصدر السابق ، ص 18.

¹⁸ محمد يوسف موسى ، المرجع السابق ، ص 87

¹⁹ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق ، المصدر السابق ، ص 19.

²⁰ ابو علي محمد مسكويه: الفوز الأصغر ، المصدر السابق ، ص ص 49 50.

الدليل الثاني: النفس لا تمتاز بالرداءة ، لان الرداءة مقترنة بالفساد "فالرداءة مقترنة بالفساد والفساد مقترن بالعدم ، والعدم مقترن بالهوى...والنفس ليست صورة هيولانية ، اي محتاجة الى الهوى في وجودها لان النفس ليس فيها شيء من الرداءة إذن ليس لها فساد ، وليس لها عدم فهي باقية.

الدليل الثالث: "ان النفس متحركة من ذاتها وكل ما كانت حركته من ذاته فهو غير فاسد إذن النفس غير فاسدة"²¹.

إذن بما ان النفس ليست هوى، وأنها بعيدة عن الرداءة، وليس لها فساد وليس لها عدم ، فهي جوهر حي لا يقبل الموت ولا الفناء.
التربية الخلقية:

يعرف مسكويه الخلق انه حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية كما رأينا ، وهذه الحال "منها ما يكون طبيعيا كالذي تسوقه فطرته ومزاجه للبذل أو الإمساك أو الجبن أو الشجاعة ونحو هذه الخلال ، ومنها ما يرجع للعادة والمرانة كالذي يتعود الصدق في القول والشجاعة في العمل ويستمر على ما تعود حتى يصير له خلقا راسخا"²².

والذي فطر على نحو معين لا يتعذر عليه أن يغير مما فطر عليه ، مما يدل على تغير الاخلاق وهذا الرأي انحاز إليه مسكويه ، فكل إنسان قابل للتخلق من حال الى حال تبعا للبيئة التي تحوطه ولنوع التربية التي يتلقاها ، وهذا ما نلاحظه في واقعنا وملاحظة انتقال الصبي الناشئ واكتسابه للأخلاق ؛ ورأى "ان الإنسان وان لم يكن بالطبيعة أخلاقيا إلا انه مطبوع على الخلق الكريم ، فعن طريق التربية السليمة يتعلم الإنسان الفضائل والقيم الأخلاقية التي يطبع بها سلوكه وأفعاله بطريقة تختلف من شخص لآخر"²³.

²¹ المصدر السابق ، ص55.

²² محمد يوسف موسى: المرجع السابق ، ص81.

²³ ابو بكر ابراهيم التلوع: المرجع السابق ، ص137.

غير ان مسكويه صاغ هذه القضية على أساس منطقي أساسه القياس العقلي والاستقراء العلمي "كل خلق يمكن تغييره ، لا شيء ممكن تغييره هو بالطبع ، إذن لا خلق ولا واحد منه بالطبع"²⁴.

مما تقدم عرضه يتبين ان سلوك الأفراد يمكن تغييره وتهذيبه من حال إلى حال، وهذا ما نجده وخاصة عند الأفراد الذين لم تنضج عقولهم ، وتكون إدراكاتهم في صور متقلبة لسلوكهم بين الفضيلة والرذيلة.

هذا ما أشار إليه فيما يخص اختلاف مراتب الناس في قبول الآداب إذ يقول: "...ليسوا على رتبة واحدة، بل فيهم المتواني والسهل والخير والشرير، والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب كثيرة ، وإذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل إنسان على طباعه وبقي عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولة"²⁵ ؛ لذلك وجب الإسراع الى تعلم الفضائل والحرص عليها منذ الطفولة.

التربية والفضيلة:

يسير مسكويه في نظريته للفضيلة نفس المسار الذي ساره فلاسفة الإغريق - وبالتحديد أرسطو- يقول مسكويه: "الفضيلة هي وسط بين رذائل، وما أنا واصفه أن الأرض لما كانت في غاية البعد من السماء قيل:إنها وسط ، كذلك المركز من الدائرة هو على غاية البعد من المحيط ، وإذا كان الشيء على غاية البعد من شيء آخر فهو من هذه الجهة على القطر"²⁶ ؛ من هذا يفهم معنى الوسط من الفضيلة بعدها عن الرذائل ، وإذا انحرفت أدنى انحراف اقتربت من الرذيلة.

لكن الشيء الذي يلفت الانتباه ان الوسط في نظر مسكويه هدف صعب إصابته كما ان التمسك به دائماً أصعب ، الأمر الذي يتطلب منا ان نقف عند هذه النقطة

²⁴ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق ، المصدر السابق ، ص32.

²⁵ المصدر السابق ، ص32.

²⁶ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق ، المصدر السابق ، ص26.

ونحن نتحدث عن الفضيلة ، "ان بعض الفضائل قد تزيد عن الوسط وبعضها قد تنزل عنه ، ويكون الخير في ذلك كله"²⁷ ؛ كيف هذا الكلام وقد قلنا ان الفضيلة وسط بين طرفين من الرذائل؟.

والإجابة مباشرة هي في قول الأستاذ احمد أمين:"ان هناك كثير من الفضائل لا يظهر فيها انها أوساط بين رذيلتين كالصدق والعدل ، فليس هناك إلا صدق وكذب وظلم وعدل، وان بعض الفضائل ليست في وسط أو على بعد متساو بين رذيلتين كالشجاعة مثلا فهي ليست على بعدين متساويين من التهور والجبن ، بل اقرب الى التهور ، والكرم اقرب الى الإسراف منه الى البخل"²⁸ وهذا الكلام اعترض عليه على نظرية الوسط الأرسطية والتي ربما لم يستوعبها مسكويه جيدا لكثرة النماذج التي يوردها لهذا الوسط "فأدرك صعوبة ذلك الوسط لأنه ليس وسطا حسابيا دقيقا، بل وسط نظري اعتباري"²⁹.

فسكويه ينظر للفضيلة انها أكثر من طرف واحد هذا "إذا تصورنا الفضيلة مركزا وأخرجنا منه خطا مستقيما فحصلت له نهاية ، أمكننا ان نخرج من الجانب المقابل له خطا آخر على استقامته فتصير له نهاية أخرى ، وتصيران جميعا مقابلتين للمركز الذي فرضناه فضيلة ، إلا ان إحداها تجري لها مجرى الإفراط والأخرى مجرى التفريط والتقصير..."³⁰. وأجناس الفضائل أربعة عند مسكويه وهي:

1- الحكمة: هي فضيلة النفس الناطقة المميزة ، انها تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة ، وأنواعها التي تعد فضائل أيضا: الذكاء. الذكر. التعقل. صفاء الذهن. جودة الذهن. والحكمة "وسط بين السفه والبله، والسفه هو استعمال القوة الفكرية في ما لا ينبغي والبله تعطيل هذه القوة وإطراحها ، اي تعطيل القوة الفكرية بالإرادة.

²⁷ موسى محمد يوسف: المرجع السابق ، ص 87.

²⁸ احمد أمين: الاخلاق ، المرجع السابق ، ص ص 135 136.

²⁹ علي عبد الفتاح المغربي: المرجع السابق ، ص 286.

³⁰ محمد اركون: المرجع السابق ، ص 510.

2- العفة: وهي فضيلة الحس الشهواني وأنواعها: الحياء. الدعة. الصبر. السخاء. الحرية. الدماثة. القناعة. الانتظام. حسن الهدى. المسالمة. الوقار. الورع. والعفة وسط بين الشره ونحمود الشهوة، أما الشره فهو الانهماك في اللذات، ونحمود الشهوة هو السكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة.

3- الشجاعة: هي فضيلة النفس الغضبية، وتظهر في الإنسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة وأنواعها: كبر النفس. النجدة. عظم الهمة. الثبات. الصبر. الحلم. عدم الطيش. الشهامة.... والشجاعة هي وسط بين الجبن وهو الخوف في ما لا ينبغي ان يقدم عليه والتهور.

4- العدالة: هي فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث، اعتبرها مسكويه "لا بوصفها جزءا من الفضيلة العامة، بل الفضيلة كلها"³¹، وأنواعها: الصداقة. الألفة. صلة الرحم. مكافأة الشرير بالخير، حسن القضاء، التودد... الخ.

والعدالة هي وسط بين الظلم والإنظلام، أما الظلم فهو التوصل الى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغي، والإنظلام هو الاستحواذ والاستحاة في المقتنيات لمن لا ينبغي كما ينبغي.

سنقف على هذه الفضيلة لان لها عند مسكويه مكانة خاصة بل واعتبرها "ليست جزءا من الفضيلة بل الفضيلة كلها، إذ كانت الفضائل الأخرى ليست بدونها شيئا مذكورا"³².

وتتحقق هذه الفضيلة "إذا سار الإنسان في ظل القوة الناطقة اعتدلت القوى الأخرى، وصارت تعمل بطريقة تحقق معها الفضائل الخاصة بها، وعندها تبرز الفضيلة الأسمى وهي العدالة التي بها فحسب تتحقق السعادة للإنسان"³³.

³¹ محمد حمدي زفروق: مقدمة في الفلسفة الإسلامية، دار الفكر العربي، (د-ط)، 2003، ص 184.

³² محمد يوسف موسى: المرجع السابق، ص 92.

³³ أبو بكر إبراهيم التلوع: المرجع السابق، ص 135.

ولأهمية فضيلة العدالة نجد مسكويه يخصص لها رسالة خاصة بعنوان "رسالة في ماهية العدل" ؛ وجاءت هذه الرسالة عندما سال التوحيدي مسكويه عن حد الظلم والعدل في كتاب الهوامل والشوامل ، رد عليه قائلا: "الظلم انحراف عن العدل ، ولما احتيج في فهمه الى فهم العدل ، أفردنا له كلاما سنقف عليه ملخصا مشروحا ، وهو في معنى الجور...والعدل يكون في المعاملات وهو التقسيط بالسوية ، وهذه السوية من المساواة بين الأشياء الكثيرة..."³⁴.

ومن الأمور التي تحقق الاعتدال في المعاملات الشريعة لأنها "الناموس الأكبر الذي هو من عند الله تبارك وتعالى ، وناموس الله تعالى قدوة النواميس كلها فقانون الشريعة يعلو كل القوانين ، وان القانون الوضعي يقتدي بالقانون الإلهي ؛ فالعادل هو الذي يتمسك بالقانون الإلهي ، أما الجائر الأعظم هو الذي لا يقبل الشريعة ولا يدخل تحتها"³⁵.

ومواطن تواجد العدالة في نظر مسكويه هي: 1- قسمة الأموال والكرامات ، 2- قسمة المعاملات الإرادية كالبيع والشراء ، 3- قسمة الأشياء التي وقع فيها ظلم وتعدي؛ والشريعة هي التي ترسم في كل موطن من هذه المواطن التوسط والاعتدال.

وتبدوا نزعة مسكويه الاجتماعية واضحة في هذه المواطن الثلاث يقول في ذلك: "الناس مدنيون بالطبع، ولا يتم لهم العيش إلا بالتعاون فبعضهم يخدم بعض...فهم يطلبون المكافأة المناسبة...ويكون الدينار هو المقوم والمساوي بينهما، فالدينار هو عدل ومتوسط استقامة ونظام ومناسبة صحيحة عادلة، وذلك يستعان بالحاكم الذي هو عدل ناطق إذا لم يستقم الأمر بين الخصمين بالعدل الساكت"³⁶.

³⁴ ابو علي محمد مسكويه: الهوامل والشوامل ، المصدر السابق ، ص 84.

³⁵ علي عبد الفتاح المغربي: المرجع السابق ، ص 270.

³⁶ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق ، المصدر السابق ، ص 79.

وأضاف مسكويه موضعين يحققان العدالة وهما: العدل الساكت وهو الدينار ، والعدل الناطق وهو الحاكم، "أما الحاكم الأكبر من عند الله تبارك وتعالى ، والحاكم ناموس ثان من قبله، والدينار ناموس ثالث ؛ فناموس الله قدوة النواميس كلها..."³⁷.

وهو ما يؤدي الى استواء المعاملة بين أفراد المجتمع ، وبالتالي يتحقق العدل المدني "فبالعدل المدني عمرت المدن وبالجور المدني خربت المدن..."³⁸.

ولا يتحقق العدل إلا إذا وجد من يحفظ السنة وغيرها من وظائف الشرع وهو الإمام "وصناعته هي صناعة الملك الذي يقوم بحفظ الدين ومراتبه وأوامره وزواجره... وذلك ان الدين هو وضع الهي يسوق الناس باختيارهم الى السعادة القصوى ، والملك حرس للوضع الإلهي حافظ على الناس ما اخذوا به"³⁹.

ويذكر مسكويه ان جميع الفضائل تتحقق بإرادتنا واختيارنا ، لكن هل الرذيلة أيضا كذلك؟ ؛ فمثلا إذا كانت العدالة فعلا اختياريا يتعاطاه الجائر ويقصد به تحصيل الفضيلة لنفسه والمحمدة من الناس، فيجب ان يكون الجور فعلا اختياريا يتعاطاه الجائر ويقصد به تحصيل الرذيلة ومذمة الناس . فمن الشنيع القبيح ان يظن بالإنسان العاقل ان يقصد الإضرار بنفسه.

ان ترك مشاورة العقل وسوء الاختيار يجعل المرء يرتكب فعلا يؤديه الى ضرر أو عذاب "فالحاسد جنى على نفسه لا على سبيل إثارة الإضرار بها ، بل لأنه يظن انه ينفعها في العاجل بالخلاص من الأذى يلحقه من الحسد"⁴⁰.

وأجاب مسكويه إجابة أخرى رآها أكثر إقناعا وهي "ان للإنسان قوى كثيرة يعمل بكل قوة عملا مخالفا للعمل بالأخرى ، فصاحب الغضب إذا اشتد غضبه اختار أفعالا مخالفة لأفعاله إذا كان ساكنا وديعا... من شأن هؤلاء ان يستخدموا

³⁷ المصدر السابق، ص80.

³⁸ المصدر السابق ، ص80.

³⁹ المصدر السابق، ص95.

⁴⁰ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق ، المصدر السابق ، ص87.

العقل الشريف في تلك الأحوال... فالعقل إذا تغيرت أحواله تلك صار من الغضب الى الرضا ومن السكر الى الإفاقة...⁴¹.

من هذا الكلام يتضح ان الرذيلة تكون في غياب العقل والجهل بالفضيلة ، "الفضيلة معرفة ، والرذيلة ليست إلا جهلا وسوء اختيار وخطأ في الرأي والحساب"⁴².

من هذا الكلام يتضح ميل مسكويه بشكل كبير الى رأي سقراط القائل: "الفضيلة بأنها المعرفة"⁴³ ؛ إذ ان سقراط يسقط عامل الإرادة تماما ويصرح: "ان الإنسان لا يفعل الشر بإرادته ، وهذا ما دفعه الى إعفاء الأشرار من نتائج أعمالهم لأنهم لم يقصدوا الشر، وإنما حصل ذلك بسبب جهلهم الأساليب المؤدية الى النتائج الخيرة ما علينا إلا ان نصحح لهم معلوماتهم كي يصبحوا في عداد الأخيار"⁴⁴.

وعلى العكس من ذلك فمسكويه لا يغفل عامل الإرادة بل يؤكد ان الفضائل جميعها بالإرادة والاختيار كما رأينا ، وبالتالي "أدرك مسكويه قيمة المعرفة في الفضيل ، وان لم تكن الفضيلة معرفة فقط إذ ان من المؤكد ان المعرفة عنصر هام من عناصر الفضيلة فهو لا يقول ان الفضيلة معرفة بالمعنى الذي قصده سقراط ، لكن يؤكد ان الفضيلة لا تخلو من المعرفة ، بل هي شرط أولي فيها"⁴⁵.

وهذه النظرة توجب على الإنسان "ان يكون ملها بتلك القواعد الأخلاقية التي سيكون عليه ان يعمل بها أو ان يخرج عليها ، ونحن لا ننكر ان مثل هذه المعرفة لا

⁴¹ علي عبد الفتاح المغربي: المرجع السابق ، ص 268.

⁴² موسى محمد يوسف: المرجع السابق ، ص 91.

⁴³ ناجي التكريتي: المرجع السابق ، ص 20.

⁴⁴ اسعد السحمراني: الاخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة ، دار النفائس ، بيروت ، ط 2 ، 1994 ، ص 68.

⁴⁵ علي عبد الفتاح المغربي: المرجع السابق ، ص 269.

تضمن لنا سلفا إقبال صاحبها على أداء الفعل الخير أو تحقيق السلوك القويم ، لكن من الواضح ان المعرفة تمثل شرطا أوليا ضروريا لكل حياة خلقية سليمة⁴⁶ . ولكن لا يمكننا ان نعتقد كما اعتقد الأستاذ محمد يوسف موسى "ان مسكويه انحاز الى سقراط وترك أرسطو"⁴⁷ ؛ الم يتأثر بأرسطو في نظرية الوسط ؛ وكيف نفسر عامل الإرادة الذي ذكره مسكويه وقال به أرسطو؟ ويتضح عامل الإرادة في قول أرسطو: "ان الفضائل لا توجد بدون فعل الإرادة والاختيار، أما وجدانات الغضب والخوف لا تتعلق البتة باختيارنا وإرادتنا"⁴⁸ .

وهذا الكلام يدفعنا الى القول أن مسكويه جمع بين نظرة سقراط القائلة بالفضيلة هي العلم ، وتحقيق بالعلم والعمل وبالمعرفة والسلوك ، ومن غير المختلف فيه انه لا يتم احدهما إلا بالآخر لان العلم مبدأ والعمل تمام.

وبين نظرة أرسطو التي تعطي الأولوية للإرادة والعادة، يقول أرسطو: "ان الإنسان يصير عادلا بإتيانه أفعالا عادلة ومعتدلا بإتيانه أفعالا معتدلة ، وإذا كان الإنسان لا يمارس البتة أفعالا من هذا الجنس فمن المحال عليه ايا كان ان يصير البتة فاضلا..."⁴⁹ .

وخلاصة القول ان مسكويه جمع رأيه في الفضيلة بين آراء سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وهذا الجمع يناسب نزعته التوفيقية بين الآراء ، وما ساعده على ذلك ان هذه الآراء بينها تواصل وأنها ليست متباعدة أو يناقض بعضها بعضا.

التربية والسعادة:

يتحدث مسكويه عن الخير والسعادة في الإطار الذي تحدث فيه القدماء وبعبارة أدق في الإطار الأرسطي، فيبدأ بذكر عبارات أرسطو ، فيقول: "ان الخير هو

⁴⁶ زكريا ابراهيم: المشكلة الخلقية ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ط3 ، (د-ت) ، 1980 ، ص115.

⁴⁷ موسى محمد يوسف: المرجع السابق ، ص92.

⁴⁸ أرسطو: علم الاخلاق الى نيقوماخوس ، ترجمه من اليونانية الى الفرنسية: بارتلي سانتيلير ، تع: احمد لطفي السيد ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، (د-ط) ، الجزء الأول ، 1924 ، ص241.

⁴⁹ المصدر السابق: ص239.

المقصود من الكل وهي الغاية الأخيرة وقد يسمى الشيء النافع في هذه الغاية خيراً، وأما السعادة فهي الخير بالإضافة إلى صاحبها، وقد تكون سعادة الإنسان غير سعادة الفرس وسعادة كل شيء في تمامه... وأما الخير الذي يقصده الكل بالشوق فهو طبيعة تقصد ولها ذات وهو الخير العام للناس من حيث هم ناس... والسعادة هي خير ما لواحد واحد من الناس، إذن ليست لها ذات معينة؛ وتختلف باختلاف قاصديها...⁵⁰.

فالملاحظ من هذا النص أن السعادة هي خير ما وأكثر من ذلك هي تمام الخيرات، والتمام هو الشيء الذي إذا بلغنا إليه لا نحتاج معه إلى شيء آخر، من هنا "يتوجب على الإنسان الحرص على الخيرات ليحقق كماله الذي له... وإلا انحط عن مرتبة الإنسانية إلى مرتبة البهيمية، فكل نفس تتشوق إلى أفعالها الخاصة بها... والنفس الإنسانية يكون شوقها إلى أفعالها الخاصة بها أعني العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة فهو فضيلتها"⁵¹.

وهذه النظرة العقلانية المسكوية شأنها شأن نظرة فلاسفة الإسلام المتأثرين بأرسطو والتي تجعل أول فضائل النفس الناطقة العلوم والمعارف، وبحسب الجانب التطبيقي للعلوم والمعارف الذي يعد باب الفضائل الإنسانية.

ويمكننا أن نميز بين أفعال الإنسان الإرادية من جهة كونها خيرات أو شرور: "فالخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد ومن أجلها خلق، والشرور هي الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه وكسله وانصرافه"⁵².

والخيرات في نظر مسكويه مقسمة إلى أقسام، وهذا التقسيم على شاكلة فلاسفة الإغريق إذ يقول: "الخير على ما قسمه أرسطو طاليس وغيره، ومنها ماهي شريفة،

⁵⁰ المصدر السابق ص 57.

⁵¹ سعيد مراد: نظرية السعادة عند فلاسفة الإسلام، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،

ط 1، 2001، ص 64.

⁵² المرجع السابق، ص 65.

ومنها ماهي ممدوحة ، ومنها ماهي بالقوة أيضا وماهي نافعة فيها"⁵³ ، ولتوضيح هذه الأقسام يكون على الشكل التالي:

1- خيرات شريفة وشرفها من ذاتها ، وتجعل من اقتناها شريفا وهي الحكمة والعقل.

2- خيرات ممدوحة منها الفضائل والأفعال الجميلة الإرادية.

3- خيرات بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الخيرات المتقدمة.

4- خيرات نافعة وهي تلك التي تطلب لا لذاتها ، بل ليتوصل بها الى الخيرات.

أما أقسام السعادة على مذهب أرسطو طاليس فهي خمسة ، يقول مسكويه: "الأولى في صحة البدن ولطف الحواس ، والثانية في الثروة والأعوان وأشباههما ، والثالثة في من كان ممدوحا بين الناس وينشر ذكره بين أهل الفضل ، والرابعة ان يكون ناجحا في الأمور ، وذلك إذا استتم كل ما عزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه ، وأخيرا ان يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات...ومن اجتمعت له هذه الأقسام كلها فهو السعيد الكامل ، ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك"⁵⁴.

والاختلاف في نوع السعادة يؤدي إلى الاختلاف في وقت حدوثها ، ان أولئك الذين رأوا ان السعادة داخل النفس وجوهر الإنسان هو النفس ، وبالتالي لا تحدث السعادة إلا بعد مفارقة النفس البدن ، وهذا الرأي يجعلنا نؤكد ان الإنسان لا يمكنه ان يسعد السعادة التامة في الدنيا، بل لا يسعد هذه السعادة إلا في الآخرة بعد موته. لكن ومما تقدم عرضه ماهو موقف مسكويه من السعادة؟

يعتقد مسكويه ان الإنسان مركب من الروح والجسم فهو بذلك "ذو فضيلة روحانية يلائم بها الأرواح الطيبة ، وذو فضيلة جسمانية يوافق بها الأنعام...فهو بالخير مقيم بهذا العالم السفلي لمدة قصيرة ليعمره ، وإذا ظفر بهذه المرتبة انتقل الى

⁵³ مسكويه: تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق ، المصدر السابق ، ص58.

⁵⁴ المصدر السابق ، ص ص 59 60.

المكان العلوي...وما دام الإنسان إنسانا اي مركبا من الروح والبدن فلا تتم له السعادة إلا بتحصيل الحالين معا ، ولا يحصلان على التمام إلا بالأشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الأبدية"⁵⁵ ، ويقصد صاحبنا بالعالم العلوي العالم المعقول والعالم السفلي عالم الحس.

والسعيد من الناس يكون في إحدى مرتبتين: "الأولى هي مرتبة الأشياء الجسمية متعلقا بأحوالها السفلى سعيدا بها، وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة باحثا عنها مشتاقا إليها متحركا نحوها مغتبطا بها، والثانية رتبة الأشياء الروحانية متعلقا بأحوالها العليا سعيدا بها ، وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية معتبرا بها ناظرا في علامات القدرة الإلهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها ، سابقا لها نحو الأفضل فالأفضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها"⁵⁶.

إذن بالحصول على إحدى المرتبتين نحصل السعادة، وأي فرد لم يوجد فيه إحدى هذين المرتبتين فهو في مستوى الأنعام بل هو أضل. لكن هناك تفاوت في درجات السعادة بين المرتبتين ، الم نرى ان السعادة الجسمية لا تخلو ولا تتعري من الآلام والحسرات لأجل الزخارف الحسية وخدائع الطبيعة ، فهي معيقة لصاحب هذه المرتبة وبالتالي فهو غير كامل ولا سعيدا تاما.

وأما صاحب السعادة في المرتبة الثانية -السعادة الروحية- فهو السعيد التام ، لان هذه المرتبة تخلو من الآلام والحسرات والزخارف الحسية ، فهي موفرة لصاحبها حظه من الحكمة وتجعله يقيم بروحانيته بين الملا الأعلى يستمد لطائف الحكمة ويستنير بالنور الإلهي.

إلا أن الرأي الذي اخذ به مسكويه قد اخذ به كل من أفلاطون وأرسطو ، لكن صاغه صياغة أخرى يبدو فيها الأثر الديني واضحا.

⁵⁵ محمد احمد جاد المولى: الخلق الكامل ، الجزء الأول ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، (د-ط) ، (د-ت) ، ص255.

⁵⁶ علي عبد الفتاح المغربي: المرجع السابق ، ص271.

فنظرة أفلاطون القائلة: "ان السعادة هي الحكمة"⁵⁷ ، ونظرة أرسطو القائلة أن للحكمة جزئين نظري وعملي، وما يؤكد ما قلناه قول مسكويه في موضع آخر: "ان تحصيل السعادة على الإطلاق يكون بالحكمة وللحكمة جزآن نظري وعملي ، فبالنظري يمكن تحصيل الآراء الصحيحة وبالعملي يمكن تحصيل الهيئة الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الجميلة ، وبهذين الأمرين بعث الله الأنبياء صلوات الله عليهم ليحملوا الناس عليها"⁵⁸.

لكن وحسب دي بور ان مسكويه "لم يفلح من حيث التفاصيل في التوفيق بين مختلف النظريات اليونانية الأخلاقية التي ادخلها في مذهبه ، ولا في التوفيق بينها وبين أحكام الشريعة الإسلامية... فلم يتقيد في مذهبه بتفريعات أهل المذاهب الفقهية ، ولا بنزعة الصوفيين الى الزهد"⁵⁹.

أما حينما يتحدث مسكويه عن الجزاء الذي يلقاه الإنسان عندما يصل الى أعلى مراتب الفضيلة وبلوغ السعادة فواضح في قوله: "...فقد فاز وأعد ذاته للقاء خالقه عز وجل إعدادا روحانيا ليس فيه نزاع الى تلك القوى التي كانت تعوقه عن سعادته لأنه قد تطهر منها وتنزه عنها ولم تبق فيه إرادة لها...وقد استخلصها للقاء رب العالمين ولقبول كرامته وفيض نوره...ويأتيه حينئذ الذي وعد به المتقون والأبرار في قوله تعالى: فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين..."⁶⁰ وذلك لان شريعة الله لا تأمر إلا بالخير وإلا بالأشياء الموصلة الى سعادة الإنسان ، ونهاية عن الرذائل المؤدية إلى هلاك المرء، وما على المرء إذا أراد الحصول على السعادة الأبدية إلا بطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه.

⁵⁷ ناجي التكريتي: المرجع السابق ، ص 346.

⁵⁸ ابو علي محمد مسكويه: الفوز الأصغر ، المصدر السابق ، ص 66.

⁵⁹ دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ، تع: محمد عبد الهادي ابو ريده ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 5 ، (د-ت) ، ص 243.

⁶⁰ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق ، المصدر السابق ، ص 67.

راعى مسكويه في مفهومه للسعادة الإنسان كأنسان بكل مقوماته "فسعاده تقوم باعتبار طبيعته التي خلقه الله عليها، يعيش في مجتمع يعتمد فيه على نفسه بقدر اعتماده على الآخرين على خلاف سائر الحيوانات"⁶¹.

وهذا الكلام واضح في قول مسكويه: "لم يخلق الإنسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه ، كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطيور...بل قد أزيحت علته في جميع ما تتم به حياته خلقة وإلهاماً..."⁶²

وهذا على خلاف الإنسان الذي دوما في حاجة الى الآخرين، ومن الواجب على كل فرد ان يبذل معونته على شريطة العدل ان يعين الناس، ومن الجور ان يحرم الإنسان المكاسب على نفسه، ويعيش عالة على غيره بداعي تصوفه وزهده، والبعد عن الناس وعدم مخالطتهم تعطيل لرسالة الإنسان، إذ أن رسالته لا تتحقق إلا مع الناس وبين الناس.

وهذه النزعة الاجتماعية جعلت مسكويه يربط بين سعادة الفرد وسعادة المجموع "فسعادة الفرد ليست بمنأى عن سعادة الغير، بل ان تمام السعادة الإنسانية لا تكون إلا مع الأصدقاء"⁶³.

وفي معرض حديثه عن السعادة تحدث مسكويه عن لذة السعادة ولذة السعيد، نحاول الآن ان نتعرف عن مقصوده من تلك اللذة؟ يرى مسكويه ان السعادة ألد الأشياء وأفضلها وأجودها وأوضحها ، فهي في نظره تنقسم الى قسمين: لذة انفعالية ولذة فاعلة.

اللذة الانفعالية: وهي لذة مشتركة بين الإنسان والحيوان ، "مقتزنة بالشهوات ومحبة الانتقام وهي لذة ناقصة وعرضية ، تزول سريعا وتنقضي وشيكا بل تنقلب لذاتها وتصير ألما كثيرة أو مكروهة بشعة مستقبحة..."⁶⁴.

⁶¹ عبد الحي محمد قايليل: المذاهب الأخلاقية في الإسلام (الواجب-السعادة) ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1984 ، ص263.

⁶² ابو علي محمد مسكويه: الفوز الأصغر ، المصدر السابق ، ص62.

⁶³ علي عبد الفتاح المغربي: المرجع السابق ، ص274.

اللذة الفاعلة: وهي تختص بالحيوان الناطق فقط، فهي ليست منفعة انفعالا لأنها صارت لذة تامة ، وأنها لا تصير في وقت آخر غير لذة ولا تنتقل عن حالتها ، بل هي ثابتة أبدا.

ومن خلال هذه التفرقة التي وضعها مسكويه يتضح ان لذة السعيد ذاتية وليست عرضية وعقلية لا حسية وفعلية لا انفعالية وإلهية وليست بهيمية ؛ فهي اللذة الكاملة والجيدة وبالتالي "فان أولئك الذين يقولون بان الكمال والسعادة القصوى بالنسبة للإنسان يمكنان في البحث عن المتع واللذات الحسية هم أشخاص يقلبون عكسيا النظام الحقيقي للقيم ، فهم ينقصون من قدر النفس الشريفة التي ينتسبون بواسطتها الى مرتبة الملائكة"⁶⁵ ، وقد وضع الأستاذ محمد أركون مقصود مسكويه بالملائكة وهو: "تلك المخلوقات التي تحررت من كل الحاجيات"⁶⁶.

وخلاصة القول أن الإنسان عند مسكويه كائن أخلاقي يتسامى عن الغريزة، ولا يمكنه ان يحقق إنسانيته إلا عن طريق الأخلاق، قد يستطيع ان يحقق لنفسه فكرة عليا أو نمط خاص يعتبره دليلا الحاذق الأرب في سلوكه، وهو ككائن عاقل يملك من الفكر والإرادة ما يجعله يتجاوز مستوى الغريزة والابتعاد عن تلك الشريحة الاجتماعية التي لا هم لها سوى البحث عن المتع واللذات الحسية ، "وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته هما في اللذات الحسية، وإنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى... وهذا رأي الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط"⁶⁷.

⁶⁴ ابو علي محمد مسكويه: تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق ، المصدر السابق ، ص72.

⁶⁵ محمد أركون: المرجع السابق ، ص494.

⁶⁶ انظر- المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

⁶⁷ المرجع السابق ، ص 494.